عائشة عصمت تيمور

(٣)

حجر نعمتها

نحن حوالي منتصف القرن التاسع عشر، في مدينة القاهرة عاصمة الديار المصرية قبل أن تبدل معالمها يدُ الهدم والبناء، وقبل أن تصقل بعض جوانبها يدُ التحسين الجديد. مدينة شرقية توالت عليها نوائب التاريخ واختلطت فيها اجناس الشعوب وهي لسرّها الطويل كتوم. توزعت في مختلف الجهات منها البقايا الاثرية والجوامع البديعة الفائقة على الثلاثمائة، والحمّامات والاسواق و«السبُل» المرمرية المقدّمة ماءها العذب لكل ظمآن يرتوي. وفوق المدينة الجاثمة ترتفع المآذنُ بقاماتها الهيفاء فيخيّلُ احياناً انّ الانسانية أعلت هياكلها في الهواء الازرق ليس ليصل صوتُ المؤذّن الى المؤمنين على مسافةٍ بعيدةٍ فحسبُ، بل ليكون المبتهلُ في صلاتهِ اقرب الى باريهِ وارسخ في الثقة بالاستجابة. وطوراً تبدو تلك المآذن كأنها حراب ارسلتها ايادي الاسلام تنبيءُ الجانب بانها على دوام الاستعداد لدفع الطوارىء من الاقدار

في الشوارع والساحات تبصر اخلاطاً من الثروة والفقر، اناساً يرتدون الاثواب النفيسة وعليهم دلائل النعمة والرخاء، وآخرين يرتدون الاطمار البالية وعليهم دلائل الذلّ والشقاء. ولكن «رغم مشهد التعاسة والمرض عند الشعب فان شوارع القاهرة ليست لتوحي الاسف والخيبة اللذين يشعر بهما المسافر في الاستانة ذات المنظر الفخم من الخارج، الحزن في الداخل. ثم أن أكثر هذه الشوارع مظلمة ملتوية متشابكة الواحد في الآخر كأنها مجاهل التيه، يعترضها هنا وهناك ممرّات خفية وقاية ما يسع عابرها ان يستسلم لحكمة دابّتهِ وثقافتها. على انها نظيفة يتعهّدونها بالكنس والرشّ المنظم[1]. وبدلاً من بلاط الاستانة الشنيع وتلك السلالم الحجرية في غلطة وبيرا، لا نجد هنا الا ارضاً مستوية صلبة تسير فوقها

(١) حبذا لو انتبهت لهذا الكلام «مصلحة التنظيم» التي تبذل كل عناية في تحسين الاحياء الاوربية في هذه المدينة وتهمل الاحياء الوطنية! ولكن ترى يشمل كلام الكاتب جميع احياء القاهرة يومئذ؟

بلا عناء . اما المنازل القائمة على جنبي الشارع فهي في الغالب اشبه من بيوت عاصمة ترك واتقن صنعةً . ففي كل وقت تقع العين مبتهجةً على واجهة مزخرفة بالنقش العربي . او على نافذة ذات الشبك الخشبي الدقيق الفن الانيق التفاصيل ، فيكاد المرء يغتفر لاجلها الغيرة التي اقامت هذا الحاجز بين داخل المسكن وتطلّع السابلة » (٢)

***

كاتبٌ اجنبيٌّ يحيّنا بهذا القول وهو لا يرى في ذلك « الحاجز » سوى رمزاً « للغيرة » . كأنّ الغيرة من واردات الشرق التي يتفرّج عليها الغرب ولا يكابدها . ولكن هلمّ نقف امام احد هذه المنازل ، امام المنزل الذي نتطلّع الآن نحو الماضي لاجلهِ . هلمّ نستعن بالخيال حين لا وسيلة سواه ، فنخترق جانباً من الحديقة الحافلة بالورود والرياحين تحت رعاية الاشجار ذات الظلّ الوارف . وهوذا الآغا يسير بنا الى دار الحريم حيث تلقانا طغمة من الجواري والخادمات وتدعونا الى الجلوس في الفسحة الواسعة الموفورة النور والهواء . ارضها تختفي وراء البسط العجمية والطنافس الفاخرة . والمقاعد والارائك تدور في جوانبها ، تتخلّلها الطاولات الصغيرة وعليها ادوات التدخين من علب اللفائف واطباق صغيرة للرماد (منافض) . وعلى جدرانها تتألّق مياه المرايا الصيقة الصافية . وقام في وسطها خوانٌ كبير من الخشب المموّه بالذهب ، تتدلّى فوقهُ الثريا العديدة الشموع المنحدرة من السقف المصنوع من خشب الجوز المجمّل بالنقش والزخرف ، بل هي هبطت من صميم رسم مثّل وردةً كبيرةً تتاوب فيها الحفر والتخريم بتنوّه مستدير وسيم . فكان النور خلال تلك التخاريم من جهةٍ الى جهةٍ نفيذاً

هذه هندسة اكثر منازل الطبقة العليا وما دونها قليلاً في ذلك العهد وما بعدهُ حتى اوائل القرن العشرين . أما البذخ والترف في بيوت الكبراء فيبدو في اتساع الغرف والردهات ، وفي تعدُّد المقاعد والمرايا ونفاسة الاقمشة والثريّات والطنافس . ولا بدَّ من قاعةٍ أو قاعات للاستقبال . على ان السيدات يقابلن عادةً

(٢) "De Constantinople a Caire," par Xavier Marmier وقد كتب هذه الرحلة سنة ١٨٤٥ — ١٨٤٦ صاحبها العضو في الاكاذيميا الفرنساوية

في هذه «الفسحة» فسحة الدار، كلّ شهور الصيف الطويلة. وهنا تنعقد اجتماعات الاسرة سواء في الليل والنهار

اقتبسُ هذا الوصف من كتاب الزوجة الاولى لصاحب الدولة حسين رشدي باشا . كانت تلك السيدة فرنساوية ووضعت كتابين بلغتها وقّعتها باسم « نية سليمة » المستعار فوصفت فيها المجتمع المصري وعاداته على ما ادركتهُ في اواخر القرن الماضي. وإنما استندتُ على هذا الكتاب (٣) لأن هدى هانم حرم شعراوي التي تفضلت فأعارتنيه مع الكتاب الآخر(٤) قالت لي انهُ أصدق ما قرأت من نوع هذه الكتب في وصف العادات المصرية، وا كثرها إنصافاً وأقربها الى الواقع . وإذا أضفنا الى ذلك ان « نية سليمة » عاشت في ذلك المجتمع وعاشرتهُ وأحبّتهُ، غير ضاربين صفحاً عن بطء التطوُّر الاجتماعي، لاسيما في الشرق وفي الايام الخالية، أمكننا ان نقول ان هذا الكتاب وإن أُنشيء في اواخر القرن التاسع عشر فهو يقرب كثيراً الى ما كانت الحال عليهِ في ايام عائشة

فلتكن إذن « نية سليمة » دليلتنا

***

هي تقول لنا ان هذه السيدة الجليلة البشوشة التي جاءتْ مرحّبةً وجلست على المقعد قربنا هي ربة المنزل . أما اولئك النسوة الجالسات على « الشلت » فهاك خبرهنَّ :

« انهن من المترددات على المنزل وليس لهن ان يجلسن قرب السيدات على المقاعد، وانْ كن أرفع قدراً من الخادمات الجاثمات على البساط او على الحصيرة » . « من من الجواري البيض المتوقات ومن الجواري السود اللاتي حججن . ومنهن الدلالات بائعات الاقمشة والبضائع . ومنهن المراضع واخوات الرضاعة وقارئات القرآن وسواهن من النديمات ومن المتطفلات الى المنزل لاغراض شتى . يأتين ويجلسن القرفصاء كل اثنتين او ثلاث على « الشلتة » الواحدة ويشتركن في الحديث ويروين الاخبار » . « اما الزائرات المهمات فاتين وبعد كلمات الترحيب وتقديم لفائف التبغ تحضر القهوة التي يستغرق تقديمها من الزيارة زمناً. فللعائلة الطبقة المتوسطة ان يؤتى بها مصبوبة في الفناجين

(٣) "Harems et Musulmanes d'Egypte" par Niya Salima

(٤) اما الكتاب الآخر فهو رواية "Les Répudiées" التي طبعت سنة ١٩٠٧ قبيل وفاة المؤلفة

على طبق من الفضة . اما في البيوت الكبيرة فيتعاون في تقديمها ثلاث خادمات على الاقل : احداهن تحمل الطبق يجلله غطاء ثقيل مزركش وقد تبدلت من حواشيه الهدبات الذهبية والفناجين مصفوفة عليه . وتحمل الخادمة الثانية ابريق القهوة في شبه مجمرة فضية امتلأت بالرماد الملتظي . بينا الخادمة الثالثة تصب القهوة وتدور بها على الزائرات » (٥)

اما الاحاديث فهي طبعاً لا تختلف عن المألوف حتى اليوم في الدوائر النسائية غير المتنورة و . . . وربما المتنورة احياناً . موضوعات لا تنفد مادّتها كأنها الماء كلما غالبت في الاسراف منهُ زاد تدفقاً سيولاً . وتلك الموضوعات هي الولادة، والخطبة، والزواج، والموت، وخصام الازواج، وخصام العائلات فيما بينها، والثروة، والاغتياب، الخ الخ . ولكن يخيَّل ان السيدات المصريات لم يكنّ يومئذٍ لتنطبق عليهنّ التهمة التي يحبُّ الرجال ان يلصقوها بالمرأة . لأن « نية سليمة » تقول بجلاءٍ انهُ :

« ليس من الغريب ان يقطع الاحاديث غير مرة سكوت طويل وربة البيت لا تقلق من جراء ذلك ولا تجهد ذهنها للاهتداء الى موضوع جديد . فقد حضرت مجالس سيدات قليلات التزاور فيها بينهن يظللن جالسات معاً دقائق طويلة ثم يفترقن دون ان يتبادلن غير كلمات التبجيل المتبذل والمجاملة الشائعة ذات المراسيم المسهبة والجمل المملة . فهي تنطوي على تمنيات ودعوات صالحات يتيسر ترديدها مرات عديدة دون ان يكون في ذلك غضاضة او خشية الهزء والنكتة » . « ثم تأتي زائرات أخريات فتنهض صاحبة المنزل للاحتفاء بهن وتحذو حذوها الجميع تلقي الواصلات الجديدات التحية ولكن ما ادق الفوارق في اساليب التحية ! انهن يقبلن يد السيدة المسنة ويدعونها « عمتي » . ويقبلن وجنة مثيلتهن في السن والمرتبة ويدعونها باسم « الاخت » العذب . ويقابلن معارفهن الاقل مؤالفة بتحية « تركية » . اما السيدات الاوربيات فيصافحن باليد » (٦)

ان اللاتي يحضرن اجتماعات السيدات المصريات يعلمن انّ وصف صنوف السلام ما زال حيًّا بحياة الواقع في ايامنا . ولقد كانت دواماً ساعات السلام لي اوقات اغتباط ودرس أتبين فيها العادات الراسخة وأُحلّلُ اسبابها ما أمكن ، بيد انّ هناك نوع سلام اخر يدخل في الصنف الثاني الذي وصفتهُ « نية سليمة » الاّ انهُ يتجاوزهُ للافراط في التودُّد والتعاطف . وهو ضم الخدّ الى الخدّ مرّةً بعد اخرى وارسال قبلات سريعة متوالية في الهواء يسمع لها صيص شائق كأنهُ تغريد طائفة خاصة من الطير . وفي ما يتعلّق بالتحية « التركية » او « اللاتوركا »

---

(٥) "Harems et Musulmanes d'Egypte"
(٦) "Harems et Musulmanes d'Egypte"

كما يقولون فاني أهتف مع «دنية سليمة» :

كم من نبل وكياسة في التحية التركية وكم تنوعها ميسور ! فاليد اليمنى تنضم بحنو وبلا توتر وتستطيل في تحدر أكثر أو أقل بعداً حتى ليصل الى الارض عند الضرورة. ثم ان للنصف الاعلى من الجسد الذي انحنى يعود الى التقوم والاعتدال مسايراً حركة اليد التي تدنو من الفم أولاً ، ثم من الجبهة دون ان تمسها، وتركن اخيرا الى موضعها تاركة خلاء في الهواء كما يترك مرور جناح الحمامة »

« والوداع يشبه السلام فتعاد عنده طقوس الاحتفاء والتبجيل ذاتها . أما التفصيل اللوذعي باتقاء شاس فهو ان السيدات اللاتي لا يزرن مطلقاً ازواج صاحباتهن يحسبن مخلات باللائق اذا لم يبثثن اليهم بالسلام مع زوجاتهم . وربة البيت لا ترافق زائراتها بل تتقدمهن الى الباب فتتبعنها » (٧)

لطيف هذا ! ومعناه المشيعة تسهل لزائراتها السبيل وانها تخرج من منزلها على نوع ما بخروجهن او هي تودع معهن شيئاً منها . وإني لأوثر هذا على السير وراء الزائرات كمن تطردهن طرداً وتقتفي أثرهن لتكون على ثقة من ذهابهن والتثبت بانها تخلصت لحين ما من ورطة وجودهن

* * *

هب ان هذا المنزل الذي زرناه الآن متبينين فيه بعض عادات ذلك العهد هو منزل اسماعيل تيمور باشا[٨] ، وأن تلك السيدة ربة البيت التي رحبت بنا هي والدة عائشة : « وهي جركسية الاصل معتوقة والدها اسماعيل تيمور باشا »[٩] فاين عائشة الصغيرة نفسها ؟ أين الشاعرة العتيدة التي نلتفت اليوم الى معالم الامس لننال لمحة من حجر نعمتها وما فيه من خطوط ألفتها فكان هيكل زفراتها وهديلها ؟ ألا فاعلم ان عائشة اليوم بنيّة صغيرة لا تحضر مجالس « السيدات » ولا تختلط بالزائرات الاّ لتقبل ايديهن ان كنّ من صديقات والدتها وقريبات اسرتها . واذا شئت ان تراها فعليك بذلك المخدع المنفرد حيث تجدها مع اختها

(مي)

(٧) " Harems et Musulmanes d'Egypte "

(٨) لقد هدم المنزل الذي ولدت ونشأت فيه عائشة كما هدم المنزل الذي سكنته بعد زواجها . وقام على آثار كل منهما ابنية جديدة

(٩) « الدر المنثور في طبقات ربات الخدور »